تأثير الإسلام في معاني الشعر وألفاظه وأغراضه في عصر صدر الإسلام

The influence of Islam on the meanings, expressions and purposes of poetry in the era of early Islam

Dr. Amin Ali
PhD Arabic
National University of Modern Languages – Islamabad
E-mail: alimudassir1984@gmail.com Orcid: https://orcid.org/0000-0001-7543-9489

Dr. Muhammad Qasim Junaidi
Lecturer, Department of Islamic and Arabic Studies
University of Swabi – Swabi
E-mail: qasimjunaidi2014@gmail.com ORCID: https://orcid.org/0009-0001-7811-410X

Abstract

The Arabic language and poetry are inseparable like soul and body, one is inseparable from the other, and since we reached the history of the pre-Islamic Arabs, we found it associated with poetry systems, and poetry was the great phenomenon in the pre-Islamic era, and the Arabs were passionate about rhetoric and eloquence, so the miracle of the Holy Qur'an came to them, So they were fascinated by it, and it captured their hearts, they were unable to come up with a verse like it, & they became exhausted with ways to match it, so they returned to their stubbornness, among the accusations they accused the Holy Qur'an of being poetry, and that the Prophet (SAWW) is a poet, even though they knew that he was farther from that.

So, Islam kept all the good pre-Islamic values, concepts and morals as they were, endorsed them, refined the impurities attached to them, and denied and fought the wrong and bad morals and concepts. This constructive intellectual and cultural revolution occurred in poetry as well, so Islam exploited poetry to serve the Islamic religion, spread Islamic morals, praise its beauty, praise the Prophet (SAWW) and respond to the polytheists, and refute their pre-Islamic beliefs and concepts.

Keywords: *Arabic language, Poetry, Influence of Islam, Pre-Islamic era.*

الشعراء المخضرمون ودورهم في شعر صدر الإسلام:

أولا: الخضرمة: قد أطلقت هذه الكلمة على كل من أدرك عهدين الجاهلية والإسلام: مخضرم؛ وسببه إطلاقه عليه لإدراكه الخضرمتين، أي: الخضرمة الأولى الجاهلية، والخضرمة الثانية أي: الإسلام، وكل من لم يختتن يصدق عليه لفظ مخضرم، فمنه يستخدم للشعراء الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، مثل: لبيد وغيرهم ممن أدركهما. (1)

فالمخضرمون هم الذين قد واجهوا الحياة الجديدة بعد مواجهتهم للإسلام، أما قبل ذلك فقد تأثروا منذ القدم من الحياة الجاهلية التي عاشوا فيها، فلذلك أطلق على الحياتين المختلفتين كلمة

الخضرمة لأنه معناه الشيئان المختلفان أو المتضادان، أما بعد الإسلام فقد تأثروا من الإسلام وأثر الإسلام في عقائدهم وحياتهم اليومية.(2)

بعد قراءة أشعار المخضرمين وتفصحها من كتب التاريخ والأدب يوجد ظاهرة التصدير من قبل جمهور الشعراء عن قيم الإسلام وروحيته السليمة في جوانب مضيئة من أشعارهم، تلك الروحية التي قد خالطت شغاف قلوبهم بعد أن آمنوا بها، ولشعراء مدينة النبي صلى الله عليه وسلم علم بارز في هذا المجال حيث تمسكوا بالعروة الوثقى ووقفوا في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ودافعوا عنه ونافحوا عنه وقد صوروا لهديه الكريم صلى الله عليه وسلم، من أبرز الأسماء في هذا المجال: شاعر الرسول حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، أما ابن رواحة فكان يستمد من القرآن الكريم دائما. (3)

أما من ناحية النمط والأسلوب فاشعر الجاهلي بقي متمسكا بأوصاف ومثالية تتصف بها الشعر قبل ظهور الإسلام، فمنها اتسامه بالإيجاز، وقوته في التعبير، وجزالته في اللفظ، وتنوعه في الموضوعات، وبراعته في الأوصاف، حتى لا يمكن للقارئ أن يميز بينه وبين شعر مكة –لهذا العصر– عن الشعر الجاهلي في ذلك الزمان، لكن نجد بعض من التجديد في شعر المدينة الذي تأثر بالإسلام عن قربه، فنجد الموضوعات الإسلامية مع عذوبة الألفاظ وسلاستها ورقتها مع الوضوع في المعاني في الأبيات والمقطعات والقصائد ناحية المعنى والأسلوب.

عندما نتجه إلى ظاهرة عموم الشعر؛ فنجد الشعر الجاهلي ونهجه سائدا ومنشرا حتى مسيطرا في أساليب الشعر المختلفة في نواحي مختلفة من أغراضه المديح والهجاء والفخر والرثاء وغيرها، فمثلا قصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) من القصائد الهامة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم واعتذاره، فملامحها من الجاهلية، ويتسم لنا عدم تطور واسع في الشعر العربي وقصائده على هدي الإسلام، وهذا من الأمور الطبيعية؛ لأن عصر المخضرمين كما يبدو من كلمة الخضرمة هو في الأصل الانتقال من العصر الجاهلي إلى الحياة الجديدة الإسلامية، ولا يمكن انتقال جل الظواهر أو معظهما دفعة واحدة؛ بل لا بد من الفترة الزمنية التي تلائم استقرار النفوس وافتتاح الأذهان أثناء هذا الانتقال حسب متطلبات العصر الجديد ومقتضياته. فالطابع الجاهلي هو صباغ شِعر عهد الخضرمة فليس من الغريب أن يرى أثره فيه، حتى روح القبيلة شائعة وواضحة

في شعر بعد الإسلام للمسلمين؛ وإن كان الإسلام قد غض من هذا الروح، وقضي على مفهوم القبيلة والعصبية ووضع في النفوس مفهوم الأمة.

فمن الأسباب التي جعلت في العصر الخضرمة الترابط بين الشعراء وبين الصبغة الجاهلية هو: النضوج الفني والعقلي لمعظم الشعراء قد تم في العصر الجاهلي، فمثلا نجد حسان بن ثابت أسلم وكان كبير السن، وكذلك كعب بن مالك، وكعب بن زهير، ولبيد، والنابغة الجعدي وغيرهم من الشعراء في ذلك العصر، وهذا هو السبب الذي ألجأ النقاد المحدثين أن يعدوا الشعراء المحدثين في نطاق الشعر الجاهلي، لشببهم في خصائص الشعر وإلصاقهم في موضوعاته، أما ظهور الإسلام كدين جديد هو صار ظاهرة كبرى في ذلك العصر، وصارت مدينة النبي صلى الله عليه وسلم مقرا للمسلمين اندفع إليها من كل فج عميق لتعليم الدين ولنشر الدين الجديد، فكل من الأنصار والمهاجرين صار أهلا وأصحابا للدين المتين، فلا من تأثير الدين في شعر هذه المنطقة المباركة حتى بعضهم أدرجوا تحت فقهاء الصحابة، فإن يطلق لفظ (الشعر الإسلامي) في تلك الفترة على شعر شعراء المدينة، فهو يصورة لنا صورة تمثيلية للدين دون غيره، إلا أن هناك فارق وهو أن الشعر في ذلك العهد لم يكن يصير تعبيرا صادقا للقيم والمبادئ الدينية الإسلامية على وجه مرجو من شعراء النبي صلى الله عليه وسلم، أما سبب ذلك هو عدم تخلص الشعراء بسهولة من الطرق التي جبلوا عليها وألفوها في سلك الشعر ذلك لصياغة المعاني التقليدية، والسبب الثاني هو كونهم حداثة العهد بالمبادئ الدينية وقيمها ولذا لم يوسعهم الاستيعاب والإدراك بها بحيث تؤثر تلك المبادئ والقيم في سلوكهم ونظراتهم المختلفة للناس وجوانب مختلفة للحياة والشعر الجديد أيضا، فكان لذلك أثر الدين في الشعر موافقا على استخدام الكلمات والتعبيرات الدينية، أو ذكر أحداث دينية ومناسبات إسلامية، أو اقتباس الآيات القرآنية وتضمينها، وتدخل هذه الظواهر كلها من تعاليم الإسلام، فليس هناك أي إبداع أو ابتكار في المعاني التي استوحت من هدي الدين الجديد وتعاليمه، بل؛ هناك أمل في استفادة الشعراء في شعرهم من أسلوب القرآن ومعانيه وكلماته ومفاهيمه، في ظواهر مختلفة من التذكير والتنذير والوعد والوعيد ومحاججة أهل الباطل وسوق القصص والأمثلة في الظواهر المتعلقة وغير ذلك.

ومن الواضح أن عهد الشعراء المسلمين بعد العصور الجاهلية عهد بدائي فلم نجد التمهل والتأنيس في نظم الشعر لديهم، لتتبع دقائق المعاني القرآنية خصوصا في تعبيرهم عن وجهة نظرهم للإسلام ولأماني المسلمين، وعندما دققنا النظر في الشعر والقصائد التي أبدعت في مناسبات الدينية وخصوصا في قصائد الحروف؛ فنجد أن تلك القصائد والشعر لم تكن مستوفاة في المعاني الدينية فهي مقتصرة في آخر القصيدة أو خلالها على بيت واحد أو ببضعة أبيات فقط ولا غير، وقلما نجد القصيدة كلها أو معظمها في معالجة المعاني الإسلامية ومفاهيمها، فمثلا قصائد حسان –رغم ذلك تصور ممثلا وصورة رسمية لشعر إسلامي والمسلمين– تفصل أمامنا فنون الشعر الجاهلي، من بينها الفخر والحماس والهجاء والوصف، فإن وجد خلالها أمرا إسلاميا من ذكر الرسول أو القرآن أو الجهاد أو الخير أو الشر، ثم سرعان ما يتجه إلى معان أخرى تلمح لنا الجاهلية من عصبية وفخرها والحرب وحبها، فالدين في تلك القصائد مستهلا أو ختاما لها، أو يمر الشاعر على معان الدين في مرورا سريعا في أسرع الوقت والكلمات السريعة، ولولا نبي الله صلى الله عليه وسلم قد تعهد الشعراء المسلمين بالتسديد في مفاهيم الأشعار وبالرعاية لأسس الدين فكلما توجهوا هذا الاتجاه الإسلامي، ولم تقض على النهج الجاهلي في الشعر العربي الإسلامي.

أما في الجانب الآخر نجد المشركين حيث لم يتأثروا بالدين، فلذا لم نجد المحاربة من قبلهم ضد المسلمين في الأمور الدينية وتهوينه، والمهاجمة في معتقداتهم، فلم نجد السفه من قبلهم ضد الإسلام والمسلمين في الظواهر الدينية كما نجدها من قبل المسلمين ضد المشركين ومعتقداتهم الدينية، عندما دققنا النظر فنجد أن القرآن الكريم قد رد عليهم في الأمور التي تتعلق بدينهم ووصفهم بالضلال والكفر والفسوق والعمي، وحتى أبطل لهم عبادتهم ورد عليهم في سفه آراءهم ومعتقداتهم، فبعد البحث نستطيع القول بأن المشركين رغم تعصبهم بالوطنية والمعقدات لم يكونوا أن يردوا على المسلمين بشيء من أمور دينية أو من آثار دينية من القرآن الكريم والسنة النبوية، بل محاولتهم وجهت تجاه محاجة المسلمين في نقض حط قيمة المسلمين وانتقاص احسابهم وذكر هزائمهم.

ثانياً– الأغراض الشعرية التي ازدهرت في هذا العصر:

1- **فن النقائض:** كان الشعر منذ القدم يعد من الأسلحة المؤثرة في الحروب بين العرب، وعندما اشتد الأمر بين المسلمين والمشركين بعد الهجرة، فالنبي عليه السلام قد وجه الشعراء من المسلمين ليردوا على المشركين وليبلوا بلاءهم في حرب الشعر والكلام. فكان شعراء المسلمين حريصون في تفنيد مزاعم المشركين عموما ومزاعم قريش على خصوصا، وعلى الجانب الآخر حرصت قريش في هجو المسلمين وتهدم وحدتهم وتعييرهم بالضعف والإستكان وقلة العدد وفساد الرأي، فلا بد من ازدهار النقائض وتنشيط الشعر حسب هذه الظروف الحربية، ومن المعلوم أن النقائض لا تكاد تذدهر إلا في أيام الحرب، فالفترة بعد الهجرة من الأولى التي تشتمل على عشر سنوات وخصوصا الثمانية الأولى منها قبل يوم الفتح المبين فترة حروب دامية متسلسلة واحدة بعد أخرى من المغازي والسرايا، فكان الشعراء من جهتين يترادون بقصائدهم، أما بعد فتح مكة صارت العرب أمة واحدة بعد دخول قريش في الإسلام فجل العرب تدين بالدين المتين، وقد ثبت وقوف الخلفاء —من أبرزهم عمر رضي الله عنه– في وجه شعراء الهجاء، فالنقائض في ذاك العصر يتميز بأنها كانت قصيرة في العمر، لأنه قد انحصر واقتصر في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، أما الحرب حسب وجة نظر المسلمين ذلت أهمية بالغة لأنها هي جهاد في سبيل الرب ووسيلة لنشر الدين المتين، ودحر لقوات الكفر وشوكتهم وضلالهم، أما حسب وجهة نظر المشركين الحرب كانت صراع محض تقيم لسبب الزعامة والرئاسة والسطلة والتعلي ولسبب علو مرتبة العصبية والقبيلة أو لسبب الحرص على موروثاتهم من الجاهلية والمعتقدات، فلا بد من لون ديني في نقائض إسلامي ومن لون جاهلي في نقائض قرشي.

2- **الفخر:**

قد افتخر أهل الإسلام منذ البداية بإيمانهم وجهادهم في سبيل ربهم وقوتهم واعتصامهم بحبل الله المتين كما افتخر الشعراء المسلمون بلغتهم ونسبهم وقومهم وعلو مرتبتهم في مجال الدين والإسلام، حيث نجد حسان بن ثابت رضي الله عنه والعباس بن مرداس حيث فخرا ببطون قبائلهم من آل النجار وبني سليم، فنجد أن هناك جانبان واتجهان في فخر المسلمين، الأول: جانب ديني حيث يفتخرون ويعتزون بالإسلام وبنبي الله صلى الله

عليه وسلم، والثاني: جانب ذاتي: وهو الفخر والاعتزاز بالأنفسهم وبعشيرتهم، أما على الجانب الآخر يقتصر فخرهم بالجانب الذاتي والعشيرة فقط، ولم نجد لديهم أي فخر واعتزاز بدين أو معتقدات ضد المسلمين.

3- **وصف الحرب:** قد وصفت الحروب والمغازي بوصف الآلات والأسلحة المستخدمة فيها من الخيول والسيوف والرماح والدروع، وكذلك سجلت أحداث الحروب بكل دقة من من انتصار وهزيمة، حتى ذكر أسماء الناس بكرهم وفرهم، فمن المقدام في الحرب ومن المنهزم الذي تقبل العار بعد الفرار، ومن قتل ومن جرح ومن أسر، فالشعر الإسلامي قد وصف الحرب وما يرافقها من أحداث أثناء الحرب وبعدها حتى الملابسات الحربية وتفصيلاتها بكل دقة، وذاك هو السبب الرئيسي في دخول النص الشعري تحت النص التاريخي المعتمد عليه، كما نجد عند ابن هشام في استدلاله على أسماء حاضري بدر من القتلى والأسرى، قد سهل على المؤرخين تدوين أسمائهم.

4- **الرثاء:** عندما تقوم الحرب فيسقط الصرعى من الجانبين الاثنين، فكذلك الأمر في الحروب بين المسلمين والمشركين، نجد المسلمين رثوا شهدائهم والمشركين بكوا على قلاهم، ومن هنا ازدهر فن الرثاء في الشعر العربي، حتى يمكننا جمع ديوان ضخم في شعر الرثاء الحزين التي يقرع القلوب، ولم يقتصر الأمر بل نجد ألوان الرثاء بعد يوم الفتح المبين بمكة المكرمة، فنجد نبي الله صلى الله عليه وسلم قد رثي بعد رحلته من الدنيا، وكذلك في عهد الخلفاء رثي شهداء معركة اليمامة ضد الردة، وكذلك استشهاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعثمان بن عفانرضي الله عنه، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد استشهاده.

5- **الهجاء:** ففي بداية الأمر كان المسلمون ضعفاء ومن المستبعد الدعوة الإسلامية الأولى، حتى لم يؤذن للمسلمين في القتال قبل الهجرة وبعدها بعام أو عامين، وعندما دققنا النظر في الهجاء، فنجد أنه ينال ويتضمن من عرض المهجو وعرضه ونسبه ومروءته، وهذه الأمور تعد من المحرمات التي يقذف به من يتعاطاه، حتى أذن الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين وصارت الحرب عنيفة شديدة بينهم، وزاد عنفها شدتها باتخاذ السيوف اللسانية المسلولة معها، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم شعراء الإسلام أن

يدافعوا عن عرضه وعرض المسلمين، وأن يجيبوا في الأسلوب المتين والنمط الفصيح بالشعر مثلما يهجو الأعداء، لكن حدد لهم حدودا ومنعهم من كلام الفحش والإقذاع، وهذا هو سبب نشاط الهجاء في تلك الفترة.

6- نجد في تلك الفترة صورة أخرى والبذرة الأولى للشعر الذي يتعلق بأمور السياسة، وذلك النمط نشط وازدهر فيما بعد عهد بني أمية؛ وسبب نشاطه في عهدهم هو تعدد الأحزاب السياسية في ذلك العهد.

ثالثاً– الأغراض الشعرية التي لم تزدهر في هذا العصر:

1- **شعر الغزل والتشبيب بالنساء:** هذا الغرض من الأغراض الشعرية لم يزدهر فيما بين الشعر الإسلامي، ولم نجد لونه إلا في بعض القصائد التي حافظت على نهج جاهلي، أما مقر تلك القصائد بعد الإسلام هو القرى والبوادي، رغم ذلك قد تأثروا بتعاليم الإسلامية فغزلهم في تلك القصائد كان عفيفاً لم تقصد فيها إمرأة معينة، وكانت القصائد خالية من منكرات الإسلام ومن أجمل صورها قصيدة كعب بن زهير في الاعتذار لنبي الله صلى الله عليه وسلم.

2- **وصف الخمر:** عندما جاء الإسلام فحرم الخمر تدريجا حتى ختم على حرمته حتماً، وحتى حدّ شابيها، فهذا هو سبب اختفاء هذا الضرب من القصائد وانعدامه، فكما نجد في أبي محجن الثقفي ظل يتغنى زمنا طويلا بذكر الخمر، لكن أخيرا ترك أسلوبه وبدأ بذمها بعد ما لقي من زجر عمر الفاروق رضي الله عنه، وإنذاره في إقامة الحد عليه ونفيه من البلاد، وقد يطبق بأن قصائده بذكر الخمر وذكريات الشرب تنتمي إلى عصر الجاهلية، أما إضافة هذا الجزء من شعره في الخمر بقصيدته الفتح لتوافقهما في الروي والقافية، أما زمان وقوعهما مختلفان.

3- **المديح الخالص:** كان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه لم يكونوا طلاب لمدح وثناء وإطراء محض، بل كان قصدهم البر والأجر وثواب الآخرة، ولهذا السبب قل شعر المديح الخالص في ذلك العصر، وقد تغيرت الجهات بتغير المعتقدات، فكان شعراء

المسلمين يسلكون مسلكا جديدا بأسلوب جديد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بمزج الصفات الدينية بأخلاق فاضلة من الشجاعة والجود والمروءة والقوة والإقدام ضد المشركين، فتغيرت معاني الشعر الجاهلي وتتجه تجاه الشعر الإسلامي وتصور لنا صورة كاملة مركبة من خصال عالية للعهدين الجاهلي والإسلامي، ولعل من أسباب قلة الشعر المديح الخالص في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعصر الخلفاء هو غلبة الإسلام وكثرة الفتوحات في البلاد المجاورة والبعيدة وفرض أرزاق الشعراء من بيت المال المسلمين، واكتسابهم بالأعمال الأخرى، فهذه الأسباب داعية إلى قلة المديح الخالص في ذلك العهد الذهبي، أما نجد وجوده في عهد بني أمية والعصور ما بعده.

رابعاً– أسلوب الشعر في صدر الإسلام:

فكان معظم شعراء العصر الإسلامي هم أنفسهم شعراء العهد الجاهلي، فكان شعرهم يعد امتدادا للشعر الجاهلي، فكانوا قد واجهوا العصرين الإسلامي والجاهلي، رغم ذلك كله قد وقع تغير كبير في أمرين مهمين: الأسلوب والمعاني.

أ– من جهة الأسلوب:

1- اختلف الشعر الإسلامي من الشعر الجاهلي في جهة الأسلوب بشكل يسير، فقد تأثر من دعامتين: الأولى: أسلوب القرآن الحكيم وأسلوب الأحاديث النبوية الشريفة، والثانية: عاطفة المؤمن الرقيقة، فتغيرت سمات الشعر الجاهلي وأبدلت بسمات الشعر الإسلامي الجديد، فتغيرت الجفاء والخشونة والغلظة وأبدلت بتقوى الله تعالى وورعه ومخافته.

2- استخدام الكلمات السهلة والألفاظ اللينة والتراكيب الجذابة هي من أهم سمات أسلوب الشعر الإسلامي التي تؤدي إلى المعنى المراد بشكل دقيق واضح.

3- وكذا وزن القصيدة وأخيلته ونظام القصيدة قد أبقاها الإسلام على ما كان، لأن مثل هذه التغيرات تقتضي وقتا طويلا.

4- التغير الحضاري في حياة شعراء المسلمين قد أثر في أسلوب الشعر الجديد الإسلامي، فتخلى شعراء المسلمين من الأساليب القديمة الجاهلية وبدأووا يبتكرون أساليبا جديدة غير مشوبة بالأساليب القديمة الجاهلية.

ب- من جهة المعاني:

1- بعد الإسلام تغيرت وجهة النظر، فاختلفت بها المعاني للشعر الإسلامي عن الشعر الجاهلي بشكل كبير، فاستقى الشاعر المعاني واقتبسها من كتاب الله وحديث نبيه صلى الله عليه وسلم، ويلاحظ جانب خدمة الإسلام ودعوته إياه.

2- بعد البحث في معاني الشعر الإسلامي والشعر الجاهلي لا يمكننا أن نحكم على انفصال المعاني من شعر كلا العهدين انفصالا تاما، بسبب تقدم الشعر الجاهلي وكونه مصدرا كبيرا بعد القرآن والسنة من بين مصادر الشعر الإسلامي التي استقى منها الأدب الإسلامي شعرا ونثرا في أساليبه وأفكاره.

3- هناك بعض من المعاني التي لم تكن صالحة حسب الفكر الإسلامي وأسسه، فأهملها الشعر الإسلامي تلك المعاني المتصادمة بتعاليم الإسلام ومعتقداته، منها الدعوة إلى العصبية، ووصف الخمر وذكرها، وغزل النسوة الفاحش، والهجاء المقذع، والمدح الكاذب وغيرها.

4- أما المعاني المتداولة السائرة في كلا الاتجاهين التي لم تصدم بأسس الإسلام ومعتقداته، فأبقاها الإسلام، لكن تغيرت القيم من الاعتماد على الجاهلية إلى الإسلام، فمثلا المدح كانت قيمه الكرم والجود والشجاعة في الجاهلية أما الإسلام فيمدح بتقوى الله وتمسك بدينه، والتحلي بالأخلاق الفاضلة من حسن الخلق والزهد والجود، فبقيت الأغراض والمعاني بعد تغييرها في القيم والمبادئ ووجهة النظر.

5- هناك جهة أخرى فكان شعراء المسلمين اختلفوا فيه بشكل بسيط وهي اختيار المعاني التي تستخدم لأغراض دينية وخصوصا في مجال الدعوة الإسلامية والدفاع عنه، فمثلا من شعراء المسلمين حسان وكعب ل قد عارضا المشركين وقريش بقولهم في أيامهم ومآثرهم والوقائع ووجها إليهم العار بالمثالب، أما ابن رواحة رضي الله عنه فقد اتجه العار إليهم بسببهم كفرهم وضلالهم وضلالهم.

6- الإسلام والمجتمع الإسلامي لم يؤاخذا بالأقوال الجاهلية وأفعالها لأن الإسلام يهدم ما كان قبله، فغفر لشعراء الجاهلية قولهم في الخمر والغزل الفاحش، فاستقى منه لكونه مصدرا شعراء المسلمين في اللغة والإيقاع ودقة الإحساس رغم كون الشعر مزيجا بين والقديم والجديد.

يقول د. شوقي ضيف: (قد استقر في نفوس كثرة الباحثين من أن الشعر العربي ظل في عصر صدر الإسلام ثابتًا عند موضوعاته ومعانيه القديمة، وأن الإسلام لم يخلف فيه آثارًا واضحة إلا بعض خيوطٍ ضئيلةٍ مبثوثةٍ في قصائد شعراء المدينة، أما من وراءهم من شعراء نجد وغير نجدٍ فقد ظلوا لا يتحولون ولا ينحرفون بأشعارهم عن صورة الشعر الجاهلي، وما عبر عنه من مشاعر وأحاسيس وأفكارٍ وأخيلةٍ...

ليس من شك إذن في أن العرب قد تأثروا بالإسلام تأثرًا عميقًا، يستوي في ذلك الشعراء وغير الشعراء، وما كان الشعراء ليحرموا هذا التأثر، وهم يمتازون بدقة الحس ورقة الشعور وبتهيئهم دائمًا لتلقي الانطباعات من عصورهم وبيئاتهم. وكأنما غابت كل هذه الحقائق عن كثرة الباحثين في أدبنا العربي، فإذا هم يرددون أن روحانية الدين الحنيف لا تظهر في شعر صدر الإسلام ظهورًا بينًا، وهو ترديد مرده –في رأينا– إلى أنهم لم يطلعوا اطلاعًا كافيًا على مادة هذا الشعر ولا أحاطوا بها إحاطة دقيقة). (4)

خامسا– قضية ضعف الشعر وركوده في عصر صدر الإسلام.

قد أشاع بعض من الباحثين —من مستشرقين وعرب– فكرة عن ضعف الشعر العربي وتخلفه وركوده في عصر صدر الإسلام، والضغط على الشعراء في شعرهم وإبعادهم عن اهتمامهم بالشعر عندما نزلت هذه الآيات الشريفة: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون۝ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون۝ وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾.(5)

ويمكن تلخيص أسباب هذه الظاهرة فيما يلي:

1- قد تطرقت معاني الإسلام وأفكاره الأساسية إلى الشعر في الموضوعات والألفاظ، فغير لنا صورة معهودة للشعر الجاهلي، فأبدلت الجزالة وتحل محلها بساطة الكلمات والأسلوب ورقة الألفاظ؛ وهذا سبب انتقال الشعر من البوادي إلى المدن من الأعراب إلى الحضارة المتمدنة، وهذا لم نعده تحت ضعف الشعر وركوده؛ بل تعد من تأثير الحضارة والبيئة والزمن، فنجد هناك الخلط بين الضعف والسهولة، ثم اللين في الكلمات والأسلوب سمة أسلوبة ذات حضارة رفيعة، فكيف يمكننا أن نعده من الضعف بالنسبة للخشونة والوعورة.

ومع ذلك كله أدخل الإسلام بمجيئه اللين والرقة في قلوب قاسية وطبائع مشركة، فمن ثم بدأ الشعراء يختارون الكلمات اللينة والأساليب الجذابة السهلة، فأبعدهم الإسلام عن استخدام الكلمات الجافة الغليظة والتراكيب الخشنة الوعرة.

2- السبب الثاني هو انشغال الشعراء عن الشعر بسبب دعوة الإسلام والجهاد في سبيل الله تعالى كما يشرحه محمد بن سلام الجمحي بقوله: (فجاء الإسلام فتشاغلت عنه –أي: عن الشعر– العرب، فتشاغلوا بالجهاد وغزو الروم والفارس، ولهت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، اطمأنت العرب بالأمصار؛ راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب مَن هلك بالقتل أو الموت، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير.) (6)

فمن المستطاع القول بأن مقصود الجمحي هو ضعف الشعر في تلك الفترة حسب الكم دون الكيف، عندما ذكر ولمح إلى قلة الشعر المروي في ذلك العهد فيتضح منه مقصود كلامه، وكان من أبرز الدعاة لانتحال الشعر العربي.(7)

وهذا الرأي نفسه نجده عند ابن خلدون وأشار إلى إعجاز القرآن في البلاغة والأسلوب والمضمون والبيان، فأوقف الشعراء نفوسهم على حدود الشعر لانتظار نزول الوحي في الحرمة أو الحلة، وبعد اطمئنانهم رجعوا إلى قول الشعر؛ حتى في مجالس النبي صلى الله عليه وسلم.(8)

ومن الأمثلة على هذا القول: كان من أشهر شعراء الجاهلية لبيد بن ربيعة، وكان مكثر الشعر في الجاهلية، أما بعد الإسلام يؤثر عنه بيتا واحدا فقط وهو:

الحمد لله إذ لم يؤتني أجلي حتّى اكتسيت من الإسلام سربالا.

وعندما طلب منه عمر الفاروق إنشاد الشعر، فرده بقراءة سورة البقرة، ثم قال:

قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنشدني من شعرك؛ فقرأ عليه سورة البقرة، وقال: (قد أبدلني الله تعالى بالشعر سورة البقرة وآل عمران). (9)

ولا مقارنة في الحجم الكميّ بين الشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام؛ لأن العهد الجاهلى امتد نحو مائة وخمسين سنةٍ، بينما عصر صدر الإسلام كان قرابة نصف قرنٍ فقط.

3- ولأنّ الإسلام وتعاليمه يحجز عن الأعمال التي يكثر فيها شعر الجاهلي يجود بها الشعراء من ذكر الخمر وغزل الفاحش والإحقاد والثأر على القوم وتشنط الضغائن.[10] وكل هذه الأمور كانت ميداناً للشعر الجاهلي، فاقتصرت أغراض الشعر على حرب لسانية مع المشركين ومدح الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه -رضي الله عنهم-

.

وقد أورد أصحاب هذا الزعم قول الأصمعي -إن صحت الرواية عنه-: (الشعر نكد، يقوي في الشر ويسهل، فإذا دخل في الخير فقد ضعف ولان، وهذا ابن ثابت من أشهر فحول الشعراء، فلما جاء الإسلام سقط شعره.)[11]

ويُرد على هذا الزعم بأن الأصمعي عدَّ حساناً من فحول الشعراء، ولا شك أن أكثر شعر حسان المرويّ عنه بعد الإسلام منحولٌ؛ فصار الضعف منسوباً إلى ما نُحل عليه من شعرٍ، وليس إلى ما قاله هو، ونرى أيضا حسان -رضي الله عنه- يرد على هذه المزاعم ويفندها، عندما قيل له: لان شعرك أو هرمت في الإسلام يا أبا الحسام! فأجاب للقائل بأن زينة الشعر هو الكذب، والإسلام محجز أو مانع من الكذب [12]، أما تجويد الشعر هو الإفراط في الوصف وكذا تزيينه بغير صدق، وهذا كله يعد من الكذب.

4- انبهار العرب ببلاغة القرآن، فصرفهم هذا الأمر عن الكثرة في الشعر.

5- وكذلك قد سقط منزلة الشعر في ذلك العهد مقابل علو شأن الخطابة، وخصوصاً صيرورة الخطابة وسيلة مؤثرة في نشر الإسلام وتبليغ مباديه.

6- فمن شعراء المشركين أمثال: عبد الله بن الزبعرى، وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب، وأبي عزة الجمحي، وأبي سفيان بن الحارث- قد هجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأمر بترك رواية شعرهم، فتنوسيت وضاعت.

7- إحساس الشعراء بعبء التعبير عن معاني وأفكار الدين الجديد الذي غير نظام حياتهم.

والحق أن هذا الركود كان مرحلةً انتقاليةً وجيزةً، حيث بدأ الشعراء يتأثرون تأثراً واضحاً بأسلوب القران والتكيف معه تدريجياً.

ومن الأدباء القائلين بضعف الشعر في عصر صدر الإسلام: مصطفى الشكعة الذي يقول: (نعترف بأن الشعر قد خبت جذوته، وتوارت بلاغته في إبان البعثة النبوية وخلالها، لقد توارى الشعر، وتحامى إنشاده بالشكل الذي تعودوا أن ينشئوه وينشدوه؛ قبل البعثة المحمدية بقليل). (13)

ونجد في الجانب الآخر من الأدباء من يرى أن بلاغة الإسلاميين أرفع طبقةً من شعراء الجاهلية، أما سبب ذلك هو إتاحة المحفوظ لهم من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، الذين قد عجز البشر على المقاومة والإتيان بشبههما، فكان شعراء المسلمون قد ارتقوا على درجات البلاغة وملكاتها لم يحظ بها شعراء العصر الجاهلي، فكان شعرهم ونثرهم أحسن ديباجة وأجمل رونقة بالنسبة لشعراء الجاهلية لأنهم يستمدون بالكلام العالي المسجع والمقفى من القرآن والسنة.(14)

وكذلك د. شوقي ضيف يرى أن الشعر قد نشط وازدهر، واستمد بنماذج عديدة من كتب الأدب القديم والحديث على دعواه، وأكد رأيه بكثرة عدد الشعراء في ذلك العهد، وجهودهم في نشر الدعوة الإسلامية.(15)

نتائج البحث:

اللغة العربيّة والشعر متلازمان كالروح والجسد، لا ينفكّ أحدهما عن الآخر، فمنذ أن وصلنا تاريخ العرب الجاهلي وجدناه مقروناً بنظم الشعر، وكان الشعر هو الظاهرة الكبرى (*Phenomenon*) في العصر الجاهليّ، وكان العرب شغوفين بالبلاغة والبيان، فجاءتهم معجزة القرآن الكريم، من جنس مابرعوا فيه، فانبهروا بها، واستحوذت على قلوبهم، وعجزوا عن الإتيان بآيةٍ من مثله، وأعيتهم السبل لمضاهاته، فرجعوا إلى غيهم وعنادهم، وكان من ضمن ما اتهموا به القرآن الكريم أنه شعرٌ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم شاعرٌ، مع علمهم أنه أبعد عن ذلك، وما عهدوا من النبي صلى الله عليه وسلم نظم الشعر.

قد يكون نظم الشعر كمالاً ومنقبةً وموهبةً أوتيها بعض البشر، لكن الله تعالى نفاها عن نبيه صلى الله عليه وسلم، فانتفاؤها عنه كمالٌ في حقه، كما أن الأمية عيبٌ ونقصٌ في البشر،

فهي في حقه صلى الله عليه وسلم ذروة الكمال، وليس هذا قدحٌ في مكانة الشعر، أو حطٌّ من قدره، بل هو سلاحٌ ذو حدّين، ويحكم عليه بناءً على مؤداه ومغزاه، لا على ماهو عليه بذاته.

جاء الإسلام فأبقى كل القيم والمفاهيم والأخلاق الجاهلية الحميدة على ماكانت عليه، وأقرّها، وهذّب ما علق بها من الشوائب، ونفى وحارب الأخلاق والمفاهيم الخاطئة والسيئة.

هذا الانقلاب الفكري والثقافي البنّاء طرأ على الشعر أيضاً، فاستغلّ الإسلام الشعر لخدمة الدين الإسلامي، ونشر الأخلاق الإسلامية، والتغني بجماله، ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم، والردّ على المشركين، ونقض معتقداتهم، ومفاهيمهم الجاهلية، وضاقت دائرة الأغراض الجاهلية السيئة على الشعر في عصر صدر الإسلام، مثل: الغزل الفاحش، والهجاء المقذع، والمديح الكاذب، ووصف الخمر.

يردّد بعض الأدباء أن الشعر لان وضعف في عصر صدر الإسلام، وهذه القضية تحتاج منا إلى وقفةٍ هادئةٍ، ونظرةٍ فاحصةٍ منصفةٍ، لنجد من خلالها أن الإسلام لم يحارب الشعر كعدوٍّ ماثلٍ، بل صقله وهذبه، ونمّاه كي يرقى إلى مجاراة الروح الإسلامية الجديدة التي بدأت تبث فيض أنوارها في المجتمع العربي، فاندثرت كثيرٌ من أغراض الشعر الجاهلي، كما استجدّت وبرزت إلى السطح عوضاً عنها الكثيرُ من الأغراض الجديدة، وذُهل الشعراء عن مضاهاة النظم القرآني، وانعدم التكسب بالشعر أو كاد، وأصبح مجتمع الجزيرة العربية أكثر محافظةً ورقيّاً، وانصرف الكثير من الشعراء عن الشعر نحو تعلم القرآن الكريم، أو على الأقلّ نظم الشعر في وصف المعارك الإسلامية، وغيرها من الأغراض المستجدة، ثم إن عصر صدر الإسلام كان أقصر بكثيرٍ من العهد الجاهلي الذي امتد قرابة قرنٍ ونصف تقريباً، ولكن في المقابل نجد أن عصر صدر الإسلام وإن لم يزدهر فيه الشعر كازدهاره في العصر الجاهليّ كمّاً وكيفاً؛ لكنه ترك بصماته على الشعر والنثر طيلة أربعة عشر قرناً مضت، بدرجةٍ تفوق تأثير الشعر الجاهلي على مسيرة الأدب عبر العصور.

(References)

[1] لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت: 711هـ)، 12/ 86 – 185، دار صادر – بيروت، ط/ 3 - 1414هـ.

Lisānu L-ʿarab, Ibni Manẓūr, 12/ 86-185.

(2) المجمل من تاريخ الأدب العربي، طه حسين، أحمد السكندري، وآخرون، ص: 465، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ط/ 1، 1930 م.

Ālmujmal Min Tārīkhi Al-Adabi Al-ʿarabī, Ṭaha Ḥusayn, Aḥmad As-Sikandrī, Wa Akharūn, P: 465.

(3) العصر الإسلامي، د. شوقي ضيف، ص: 68، مكتبة المعارف – القاهرة، بمصر، ط/ 7، د، ت.

Ālʿaṣru Al-Islāmī, Dr. Shawqī Ḍayf, P: 68.

(4) شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام د. النعمان عبد المتعال القاضي، (مقدمة د. شوقي ضيف للكتاب)، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، ط/ 1، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

Sheʿru Al-Futūḥi Al-Islāmiyat Fī Ṣadri Al-Islām Dr. An-Nuʿmān ʿabd Al-Mutaʿāl Al-Qāḍī, (Muqadimat Dr. Shawqī Ḍayf Lil-Kitāb).

(5) سورة الشعراء، 26/224-226.

Sūrat Ash-Shuʿarā', 26/ 224-226.

(6) طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلّام الجمحي، المحقق: محمود محمد شاكر، 25/1، دار المدني- جدة، د، ت.

Ṭabqāt Fuḥūl Ash-Shʿrā', Muḥamad Ibn Sallām Al-Jumaḥī, Al-Muḥaqeq: Maḥmud Muḥamad Shāker, 1/25.

(7) المرجع نفسه الصفحة نفسها.

Ibid.

(8) مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، المحقق: خليل شحادة، ص: 804، دار الفكر، بيروت، ط/ 2، 1408هـ - 1988م.

Muqdmat ibn Khaldūn, ibn Khaldūn, al-Muḥaqeq: Khalīl Sheḥādat, p: 804.

(9) الحياة الأدبية في عصري الجاهلية وصدر الإسلام؛ محمد عبد المنعم خفاجي وصلاح الدين عبد الصبور، ص: 293، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع السلسلة: الحياة الأدبية- القاهرة، ط/ 1- 01 يناير 1984 م.

Ālḥīāt Al-Adabīat Fī ʿṣrai Al-Jāhelīat Ūṣadr Al-Islām; Muḥamad ʿbd Al-Muneʿm Khafājī Ū Ṣalāḥ Ad-Dīn ʿbd Al-Ṣabūr, P: 293.

(10) الإسلام والشعر، د. سامي مكي العاني، ص: 31، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت، ط/ 1، 1965 م.

Ālislām Wālsheʿr, Dr. Sāmī Makki Al-ʿānī, P: 31.

(11) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي (ت: 1408هـ)، 296/18، دار الساقي – بيروت، ط/ 4، 1422هـ - 2001م.

Ālmufaṣl Fī Tārīkh Al-ʿrb Qabl Al-Islām, Dr. Jawād ʿlī, 18/296.

(12) المرجع نفسه الصفحة نفسها.

Ibid.

(13) الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، د. مصطفى الشكعة، 1/ 91، دار الكتاب اللبناني -بيروت، ط/ 2- 1974م.

Ālʿadb Fī Maūkeb Al-Ḥaḍārat Al-Islāmīat, Dr. Muṣṭafa Ash-Shakaʿt, 1/ 91.

(14) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. إحسان عباس، ص: 622، دار الشروق للنشر والتوزيع القاهرة – مصر، ط/ 2، 03 يناير 2018 م.

Tārīkh An-Naqd AL-Adabī Eʿnd Al-ʿrab, Dr. Iḥsān ʿabās, P: 622.

(15) العصر الإسلامي، شوقي ضيف، ص: 42-43.

Ālʿaṣru Al-Islāmī, P. 42-43.